ولم يسمع ابو قيس شيئا ، الا انه قال لي :

ـــ يبدو ان هذا الولد كثير الثرثرة .

ضحكت وهززت راسي موافقا ، واخذ حمدان يدمدم حانقا ، فقال ابو قيس :

ـــ لا تضيع وقتك . لماذا لا تذهب وتشتري لنا نص وقية جبنة ؟

قال حمدان :

ـــ لا . لن اتركك هنا وحدك مع عامر . لن اسمح لكما بالذهاب الى قبر الولي . سأظل هنا وسأظل أراقبكما .

وجاء الصمت ، الذي صرت معتادا عليه الآن ، والذي هو صوت الانتظار ، بكل ما فيه من ترقب يحبل بالجديد . صوت الولادة وهي تتدفق بسكون من قلب الفراغ ، مثل الارتطام الساكن لغيمتين متفقتين على موعد المطر ..

وبهدوء ، تماما مثلما يشرع المطر ، قال ابو قيس :

ـــ أتعرف يا عبد العاطي ؟ ظننت اليوم ان الولي قام بالمعجزة .

قلت لنفسي : امس قام بالمعجزة فعرّف واحدا من الطيرة على واحد من الطيرة بعد عشرين سنة ، اليوم قلت لنفسي : ها هو ذا جعلني اسمع على صورة فريدة ، لقد اكتشفت فجأة انني أفهم ما يقوله الناس وذلك بقراءة حركة شفاههم . ولكن أتدري ؟ هراء . طق حنك . في آخر النهار عرفت انني لا استطيع أن أقرأ من حركات الشفاه الا تلك الكلمات المحدودة : فول . عدس . حليب . كوكوس . طحين . تمر وغير ذلك من بضائع الاعاشة .. اما غيرها فلا شيء .. أتعرف لماذا ؟ لان هذا هو كل ما تعلمت أن أسمعه من عشرين سنة . كل يوم كل يوم كل يوم . لا معجزة ولا من يجترحونها . ذلك شيء مثل أن أتعرف في وجه الانسان على البكاء ، ذلك لا يحتاج الى سمع ، لا هو ولا تلك الكلمات المعولة ... يا لعفريت البؤس كم هو ذكي ! مثلما تتعرف أصابعك على الرغيف ، أنت الاعمى . دونما حاجة الى بصر ، أتعرّف أنا على تلك الكلمات التي ليست لغة ، والتي ترتسم على الوجه مثل الحزن او النعاس او الخيبة ... »

وعاد الصمت ، صوت الانتظار هذا ، الذي أحسه الآن اكثر من اي وقت مضى مترعا حتى حافته بولادة غامضة ، على وشك ان تنبثق في اية لحظة . أن هذا العالم يدور بسرعة مجنونة وتختلط اشياؤه في فوضى مروعة ما تلبث ان تنداح في حقائق متسقة . هذه اللغة التي يتحدث عنها ابو قيس ، لغة اللاجئين ، لغة البؤس التي لا يسمعها ، ولكنه يراها ، لغة البؤس التي لا أراها ، ولكنني أسمعها ، وغالبا أحسها ، تارة في رغيف الخبز ، وتارة حين تتفصد راحتا يدي بالعرق والدموع . اللغة التي لا يستطيع عبد العاطي لا سماعها ولا رؤيتها .

واخذ ابو قيس يضرب رغيف الخبز الذي يحمله على حافة الطاولة برفق ، غارقا في أفكاره ، ثم مضى يقول :

ـــ « اللغة عادة ، وقد تعودت أنا لغة الاعاشة ، وأنت تعودت لغة بيع الخبز . انني افهم لغة زينة جيدا ، ولغة مصطفى ، ولغة شارع الاسفلت الذي تسير عليه الاحذية والمداحل والدبابات والكلاب ، ترى لو تعودت لغة اخرى ، اما كنت أفهمها ؟ أعني لو انني عشت في جو آخر . اما كان لدي لغة اخرى ؟ »

ووقف ثم راح يتمشى في الممر الضيق الذي يفصل الفرن عن دكان البيع ، وجاء حمدان فوضع يده على كتفي ، وقال هامسا :

ـــ « لا تترك هذا الشيطان يضللك . اترك الولي بحاله ، ان المعجزات التي اجترحها